المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثالث - 1399 - 1979

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شكير

الصاحب بهاء الدين الأربلي

بقلم المرحوم
عباس العزاوي
اخراج
فاضل عباس
بغداد ـ الجمهورية العراقية

قال الشاعر :

ما كل من طلب المعالي نافذا
فيها ولا كل الرجال فحول

ـ نعم لا يعد اديبا من استظهر بعض الشعر او حفظ شيئا من نفائس مختاراته ليرضي السامع في مجلس او عدة مجالس ، ولا يعد اديبا من فرض بعض الشعر ، او نظم بعض ابيات منه . وانما الاديب من نفذ نفاذا صحيحا في اصل الادب ، وتذوقه ، وزاول النظم والنثر او احدهما وله سيطرة على ضروبه ، وتصرف فيه كيف اراد . وله موهبة في تقدير قيمته ، ومعاييره ، او نزعة خاصة منه في مختاراته ، وفي عرضها ، واقتناص شوارده ، والتقاط درره ، والتمكن منها ، والسيطرة عليها ، في الانتفاع منها .

ظهر في العراق افاضل بلغوا فيه غاية مهمة فكان هذا شانهم ، فخلفوا ثروة من مختار عصر او عصور ، فصارت غذاء الامة في التوجيه ، والمعرفة في منابع الادب ، وتاريخ تطوره ، يرجع اليها ، ويستقى منها ما يراد دوما ، وما المجاميع الادبية الا نتاج هذه الجهود ، ومحصولها في التوجيه الادبي . فكل واحد وضع لبنة تكون من مجموعها البناء الادبي الضخم الشامخ لتغذية الامة واستقائها منها ، ورجوعها اليها للاستفادة دائما ، وبلا هوادة .

وآثارنا الادبية عامة بعثرتها الايام واصابها الضياع ، او التدمير ، والتفرق ، او الاختفاء مدة طويلة ايام خمولنا ومن ثم شعرنا بالحاجة الى التحري عنها ، او اثارتها من مكامنها في خزائن العالم ، والتماسها للحصول عليها .

وكل منها يسد ثلمة من تاريخ ادبنا ، ويوضح صفحة مهمة . والادب العربي لا يزال في تنقيب لما يزيد في مجموع مادته ، والاطلاع على جهود اهليه ؛ فيكمل الفراغ في بحوثه وفي سد فجواته ، لا سيما ما كان من صفحات تاريخية للاحاطة العامة الكاملة والشاملة في مجموع ادبه ، وادراك النقص فيه ، والتاهب لتدارك الخلل فيه باثارة ما هنالك .

ظهر في العراق جماعة في المنظوم والمنثور ، فكانوا وسيلة الثقافة نرجع اليهم ، ونستقي من معين آثارهم ، لتكون عونا لنا في حياتنا الادبية في اكمال ما عندنا من تاريخ الادب ، وقد عثرت على جملة من هذه الآثار ، وهي من صميم الادب العربي ، وصفحات ناصعة فيه .

وللمترجم كتاب نفيس مما عثرت عليه في تاريخ الادب ، وتطوره ، لا يصح اهماله . يضاف

WWW.ATTAWEEL.COM

الى خزانة مؤلفاته ، وتظهر قيمته الكبيرة للتاريخ الادبي في العراق لا تقدر قيمته ، اضاف الى «الجامع الادبية» مجموعا ثمينا يسد فراغا ظاهرا او ثلمة ، اعني « التذكرة الفخرية » . ولا اعجل بالبيان . فمن الضروري التعريف بالمترجم ، وبيان مؤلفاته ، ومن بينها كتابه موضوع البحث .

والصاحب بهاء الدين الاربلي ، هو البهاء ابو الحسن علي بن الفخر عيسى الاربلي من اسرة عربية من (بني شيبان[1]) . ينتمي الى شرف باذخ وهو الذي رفعه الى الظهور . كان والده فخر الدين ابو علي عيسى بن ابي الفتح بن هندي الاربلي اميرا حاكما باربل ايام الصاحب تاج الدين ابي المعالي محمد بن الصلايا الحسيني . اودعت اليه رئاسة البلد . واصله من عشيرة الهكارية[2] في (ديار انيزيدية ويقال له « ابن حجيني » . وتوفي باربل في سلخ جمادى الآخرة سنة ٦٦٤هـ ـ ١٢٦٦م . قال ابن الفوطي ورثاه جماعة من اهل بغداد . منهم شيخنا شمس الدين ابو المناقب محمد بن احمد الحارثي الهاشمي الكوفي بقوله من قصيدة طويلة :

لقد كان (فخر الدين) بحر فضائل
ولم نر بحرا قبله ضمه القبر
كريم السجايا هذب الجود نفسه
الى ان تساوى عنده الترب والتبر[3]

وكانت اربل في حكم آل بكتكين . وآخرهم مظفر الدين گوكبرى المتوفى سنة ٦٣٠هـ ، وتعد دار ثقافة وفيها مدرسة گوكبرى المشهورة ، ومدارس اخرى . جمعت اكابر الرجال في الادب منهم ابن المستوفي وابن الشعار ، وابن خلكان . وزارها علماء كثيرون منهم ابن دحية الكلبي المؤرخ . والابهري وجماعة كبيرة ولقد بحثت في آل بكتكين في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[4] . (مجمع اللغة العربية) .

واثر وصول خبر وفاة گوكبرى ارسلت الجيوش من دار الخلافة واستولت عليها في ١٧ شوال سنة ٦٣٠هـ ـ ١٢٣٣م . وفي سنة ٦٣٤هـ ـ ١٢٣٦م هاجمها التتر . ثم ارسلت الخلافة ابا المعالي محمد بن الصلايا العلوي ؛ بالتوجه اليها لتجديد سورها واعمار ما خرب من دورها[5] . وجاء بعد حوادث بغداد ؛ وسقوطها على يد المغول ؛ ان ابن الصلايا كان (ناظر اربل). وقتل بجبل (سياه كوه) . بامر السلطان هولاكو وكان كريما جوادا ؛ فاضلا ، متدينا ، يبالغ في عقوبة من يفسد او يشرب الخمر[6] فذهب مأسوفا عليه بحزن والم . رحمه الله تعالى .

وفي ايام ابي المعالي محمد بن الصلايا كانت ادارة الفخر لمدينة اربل خلال هذه المدة . جمع اليه افاضل قاموا بالمهمة ، وخلدوا ذكريات طيبة ؛ وسمعة محمودة .

والمؤلف المترجم كان من ادبائنا اشتهر في الانشاء والادب ، وزاولهما طول حياته في بغداد ، ارخ ادباءنا المعاصرين له ، بعد الاتصال بادب العراق وادبائه ، وظهرت له مؤلفات مهمة ونافعة جدا في بناء الادب العربي الجديد اثر انقراض الدولة العباسية في بغداد ، ويعد من المؤسسين له .

ولي في شهر رجب سنة ٦٦٠هـ ـ ١٢٦٢م ، الكتابة في ديوان الانشاء ببغداد . ابدع في مهمته ، وكان قواما بادبه ، صالحا في عمله قام بخدمة عطا ملك الجويني والي بغداد ، وخدمة اخيه شمس الدين محمد الجويني . تدرب خلال ذلك تدريبا لا مزيد عليه . دام في ديوان الانشاء مدة ، وهو مقبول المكانة مرضي السيرة في اخلاقه وادبه الجم . دام الى ان توفي ؛ تعرف الى الملك الكبير

---

(١) بنو شيبان من القبائل العدنانية المعروفة اشتركت في (فتح العراق) على عهد العرب المسلمين وكان زعيمها المثنى بن حارثة الشيباني . وقد مزقتهم الحوادث ، وبددت شملهم . واعظم ما جرى عليهم حادث عضد الدولة البويهي ، فانه قسا فيهم ، وشتتهم شذر مذر سنة ٣٦٩هـ . ولكنهم عادوا للحياة ، فصار منهم قضاة الشهرزورين ، وبنو الاثير ، وبعض الامراء في اربل وغيرها .

(٢) هكاريا او هكاري من عشائر اليزيدية تسكن في انحاء مختلفة من قضاء شيخان وهي كردية ورئيسها الشيخ الياس ابن الشيخ خضر ابن الشيخ حسن . ومنه استقيت معلوماتي في كتابي (تاريخ اليزيدية واصل معتقدهم) طبع ببغداد سنة ١٩٢٥م واعددته لطبعة منقحة ومزيدة .

(٣) تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب لابن الفوطي (ولد في ١٧/المحرم سنة ٦٤٢هـ ـ ١٢٤٤م وتوفي في ٢٠ المحرم سنة ٧٢٣هـ ـ ١٣٢٣م) ج ٤ قسم ٣ ص ٢٧٥ طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ـ احياء التراث القديم سنة ١٩٦٥م . وتوفي الكوفي سنة ٦٧٥هـ ـ ١٢٧٦م .

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وفي كتاب خاص هو (اربل ـ المحافظة والمدينة) الذي لا يزال مخطوطا .

(٥) الكتاب المسمى بـ (الحوادث الجامعة) ص ١١٠ .

(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

وهو كما وصفه المترجم فخر الدولة والدين ، جمال الاسلام والمسلمين ، مفخر الزمان منوجهر ابن ابي الكرم الهمذاني الذي قال فيه :

« فجلوت بمعرفته صدأ القلب والعين ، واحللته في الاسودين ، وعقدت على محبته خنصري ... » اهـ . الى آخر ما نعته به من النعوت وقال :

« فطلب مني ان اجمع له (مجموعا) مشتملا على معان من الاشعار ، ولمع من محاسن الاخبار ، ليشرفه بمطالعته ، وينوب عن حضوري اذا غبت عن خدمته . وقد استخرت الله تعالى في جمع هذا (المجموع) ، وجعلته اوصافا ، وسميته :

« التذكرة الفخرية »

... واوليت جملة منه من خاطري . وقد ملت في اكثره الى اشعار المحدثين من اهل العصر ، الا ما قلّ من اشعار القدماء . وما لم ار للمعاصرين فيه شيئا ، فالضرورة تدعوني الى استعمال اشعار المتقدمين فيه . ورغبتي في اشعار المحدثين قرب متناول معانيهم ، وسلامة الفاظهم ، وتناسبها وحسن مذهبهم في تلطيف الالفاظ والمعاني ، ورشاقة السبك واصابة الغرض ، وتجنب حوشي اللغة ووحشيها ، ليكون ادعى الى الرغبة فيه ، وانسب الى ما اقتضته الحال التي جمع لها . واليق بطباع اهل العصر . ولان الجيد من اشعار الجاهلية ، ومخضرمي الاسلام ، ومخضرمي الدولتين ، والمحدثين لا يخلو منها كتاب او مجموع وان المصنفين لم يغادروا فيها صغيرة ولا كبيرة الا احصوها . وقد كان جمّل الله ببقائه ، وجمع القلوب ـ وقد فعل ـ على ولائه طلب ان اضيف الى هذا (المجموع) شيئا من (الدوبيت) ، و (المواليا)(٧) ، و (الموشحات) فاجبته اجابة مطيع وسارعت الى امتثال امره مسارعة سميع ، وتبعت غرضه في الاختيار ، وملت معه في الايراد والاصدار . وبالله اعتمد ... » .

(٧) المواليا او الوال في خزانتي مجموعة منه للشاعر الاستاذ عبدالغني جميل ملتي بغداد سابقا ومجموعة للشاعر اسماعيل بن حمد الجبوري وشعرهما هذا متداول . كما توجد في خزانتي مجموعة من الزهيري والعتابة والنابل ومجموعات كثيرة من شعر البادية والارياف بخطي .

وجاء في آخره :

« فرغت من تعليقه بحمد الله وعونه في رابع عشر شهر رمضان المعظم سنة ٦٩٣هـ(٨) ، بمدينة بغداد . ولم يقع اليّ (الدوبيتات) ، و (الموشحات) و (المواليا) التي وعد الجامع لهذا الكتاب بها لاثبتها وان رايتها سطرتها ان شاء الله تعالى ... وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين (٩) » اهـ .

اسلوب التذكرة الفخرية :

ومن هذا البيان عرف موضوعه ، وتجلت عظمته في نهجه ، وظهرت فائدته الادبية وهي عميمة النفع لا سيما ما احتوى من (شعر المعاصرين) ، ونثرهم . ولاختيار المؤلف هذا قيمته الادبية ، ومكانته ، كما انه اوضح عن الاسلوب وهو من اجلّ ما ذكر ، وجلا صفحة عن اوصافه ، وما يجب ان يتحلى به الاديب مما لم نجده في غيره . فالاسلوب جديد ، والنهج بديع ، ولائق بالاهتمام والرعاية ، وبه كشف عما اراد وخدم الادب العراقي . واهم ما فيه مما يعود للمعاصرين ، ومختار شعرهم وادبهم . ولا شك ان هذه الصفحة كانت مهمة لا سيما وانها من اديب كامل عارف بالاوضاع الادبية ، متوغل فيها . اختار اجلّ ما عرف ، وهي من اهم المختار على ما ذكر ، وكنت كتبت في (المجاميع الادبية)(١٠) في النظم والنثر على ما يدل على حسن اختيار ، وصفوة ما يقتني ، واجلّ ما يبصر بروح الادب ، وبهذه المجاميع استغنينا عن دواوين كثيرة ، وعن رسائل ادباء عديدين ، ومدونات اغنت عنها هذه المختارات فجاءت هذه الصفحات عيونا مصطفاة مختارة ، وادبا جما وفضلا غزيرا .

وهذه المجموعة صفحة اخرى مهمة لا نستغني عنها .

(٨) يوافق هذا التاريخ سنة ١٢٩٤م كما جاء في كتاب الفخري لابن الطقطقي والشذرات ج ٥ ص ٢٢٢ وروضات الجنات وتاريخ مفصل ايران ص ٥٠٥ . وورد في الكتب التالية مثل فوات الوفيات (ج ٢ ص ٨٣ و ٨٤) والحوادث الجامعة وفي مجلة الكتاب المصرية (عدد ١٠ : ٣٦١) والاعلام للاستاذ خيرالدين الزركلي ج ٥ ص ١٢٥ الطبعة الثالثة انه توفي في سنة ٦٩٢هـ غير صحيح .

(٩) من كتاب التذكرة الفخرية . المخطوط في خزانتي .

(١٠) مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد السادس .

وكان تاليف هذا الكتاب في اواخر ايامه . وما جاء في تاريخ هذا الكتاب يظهر انه لا يزال في قيد الحياة الى ١٤ شهر رمضان سنة ٦٩٣هـ ـ ١٢٩٤م . ولا ريب في انه توفي بعد هذا التاريخ . وفي هذا ما يشعر ان المقدم له لا يزال في قيد الحياة ايضا . وذكر ابن الفوطي وفاته ولم يعين له تاريخا متقنا باليوم والشهر . واعتقد ان سبب تاخره في تحقيق ما طلب منه عدم عثوره على المراد من (الأدب الشعبي) بالوجه الذي اختط من زجل مرغوب فيه ، ودوبيتات ، وموشحات . فلو امكنه العثور على ما يسد رغبته من المواليا ، وكان وكان ، والزجل لحصل له جماع الأدب . ولكانت مجموعته هذه شاملة للغرض المطلوب . ولذا اعتذر عما وعد ، ولم يقطع امله من التدوين عند الحصول عليه .

وهذا ما يجب ان يفعله ادباء اليوم في نهجهم الادبي ليكونوا قد استكملوا العدة ، فقد اختط خطة فائقة وحسنة لمن اراد السلوك الأدبي المرضي وقد قمت ببعض المهمة في الموضوع ، وجعلته بحثا من بحوث التاريخ الأدبي كما اراد . والاستاذ المترجم مع المقدم اليه هذا الكتاب كانا سابقين الى هذا الموضوع . ونحن في حاجة الى مثل هذا في ادبنا العربي .

ان مختارات الشعر بالشروط التي ذكرها تغني عن دواوين كثيرة وعن أشعار منسوبة لبعض الأدباء فجاءت الاوصاف المطلوبة من خير ما ذكر ، واجل ما دوّن .

وعندنا لا تزال المختارات مهملة ، وكانت معروفة الى وقت قريب وتابعة لذوق المختار وقدرته الأدبية ، ودرجة علمه في هذا الاصطفاء . ولكن فاته انتخاب ادب اللهجات ، فلم يستطع ان يذكره اكتفاء بذكر بعض امثلتها فيؤدي الى نقص في ما اراد .

والمختارات انتبه العرب اليها من اول النهضة الأدبية ، فجمعوا نخبا لا تقدر بثمان ، والأجلّ انهم تابعوا الزمن في التوالي فزادت وجمعت ثروة عظيمة .

ادب الزجل :

وان أدب الزجل(١١) لا يتم بدونه . فانه

(١١) في خزانتي مجموعة في الزجل كتبت بخط جميل لشاعر الشعراء منهم :

صفحة مكملة . فاعتذر عن الركبانيات ، والمواليا، والحداء ، وما ذلك الا لشيوعها ، وهي ما يؤيد قول ابن كثير الذي انقله عن كتاب صوت المنطق في معرض الذم خوفا على الفصحى ان تختلط به. (وذلك بمناسبة تاسيس رصد مراغة(١٢) سنة ٦٥٧هـ ـ ١٢٥٩م ، والجرايات لعلمائه) والذي نقله الامام السيوطي عن كتاب البداية والنهاية لابن كثير ، قال الامام السيوطي :

« بعد اخذ التتار بغداد (سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م) عمل الخواجة نصير الدين الطوسي الرصد (سنة ٦٥٧ هـ) ، وعمل دار حكمة ، فيها فلاسفة ، لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للحكيم درهمان ، وصرف لاهل دار الحديث لكل محدث نصف درهم في اليوم . ثم فشا الاشتغال في العلوم الفلسفية وظهر . ولم يكن الناس يشتغلون بها الا الآحاد في خفية . وبدلت بغداد بعد تلاوة القرآن بالنغمات والالحان ؛ وانشاد الاشعار ، وكان وكان . وبعد سماع الأحاديث النبوية ، يدرس الفلسفة اليونانية ، وبعد المناهج الكلامية ، بالتاويلات القرمطية ، وبعد العلماء ، بالحكماء ، وبعد الخليفة العباسي ، بشر الولاة والاناسي . وبعد الرياسة والنباهة ، بالخساسة والسفاهة . وبعد الطلبة المشتغلين ، بالظلمة والعيّارين ، وبعد الاشتغال بفنون العلم من التفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا ، بالزجل والموشح ، ودوبيت ، وموالیا . وما اصابهم ذلك الا ببعض ذنوبهم وما ربك بظلام للعبيد(١٣) » انتهى كلام ابن كثير . مما يدل على ان ذلك كان موجودا .

١ ـ علاء الدين علي بن محمد القلقامي الدمشقي .
٢ ـ سديد الدين بن كاتب المرج .
٣ ـ ابن الزمان .
٤ ـ ابن غزالة المغربي .
٥ ـ ماماي الرومي نزيل دمشق .

وفي كتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي‌الدين الحلي ، اجمال عن تاريخ الزجال من اول العهد العباسي الى اواسط القرن الثامن الهجري (تاريخ الادب العربي في العراق من مطبوعات المجمع العلمي العراقي ج ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٣) .

(١٢) تاريخ علم الفلك في العراق من مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨م وفيه تفصيل عن الرصد وعن الخواجه الطوسي .

(١٣) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام تاليف الشيخ الامام جلال الدين السيوطي المتوفى في ٩ جمادى الاولى سنة ٩١١هـ ـ ١٥٠٦م . من منشورات مكتبة الخانجي

وقد اعترض ابن جبارة(١٤) والصفي الحلي ، على شيوع الزجل حذر ان يؤثر على الفصيح ، فيهمل او تقل العناية به . واختلاف الراي يعين وجهات نظر الادباء . ونستطيع ان نعد جماعة اخرى انتصرت للزجل ودعت الى الاخذ به ، ومن هذه الجماعة مثلا الصلاح الصفدي انتصر لابن سناء الملك في تعاطيه الزجل وكذا ايده ابن خلدون، وما شاع من ادب الزجل ، واستمر الى يومنا هذا يدل على ان الرغبة فيه لم تنقطع ولم يؤثر فيها ما حدث من ذمّ الاخذ به .

وهذا ما يجب ان يفعله ادباء اليوم ، فكان لالتفاتته مكانة جميلة . فكل من جاء بعده تابع نهجه ، فسار القوم نحو ما سار ، فكان له اختياره ، ومنهاجه في تقرير النهج ، واعجب ممن يذم تلكالعهود بانها عصور مظلمة وادبار ، فالتنديد بها امر سياسي .

وان المترجم فتر سوقه ايام نفوذ اليهود . وكان الحاكم منهم ببغداد سعد الدولة(١٥) . وبعد قتله عادت له المكانة ، ولم ينكب حتى مات . ومهمته ادبية لازمته طول حياته . فكانت اراؤه الخالدة صفحة من تاريخنا الادبي .

والكتاب كل بحوثه نافعة ولاذّة . وهي نزوة ادبية ، ومعين لا ينضب . اساليبه متنوعة مع سلامة الالفاظ ، وتناسق وتلطيف في المعاني كما وصف . وافتراح الزجل ممن كتب له الكتاب كان بمحله ، والطلب ممن هو مدرك روح الادب . وكان الزجل موجودا بكثرة ، ولكن المؤلف لم يرد ان يجمع مجموعة منه بلا عناية ولا ترتيب . وانما اراد ان تكون على نسق الفصيح مما جمع ، ولم يشأ ان يدخل في مازق حرج يدعو الى نقده بل نقد نفسه فلم يتيسر له ما اراد فاحجم .

والأزجال صفحة ادبية . وثروة عظيمة ، وتجديد في الادب العربي ، ومجموع لا يستهان به، ادب حيّ ، متداول على الالسن ، وان حياته في تجدّد ونشاط دائما . يخدم الفصحى ، وغيرها بأساليبه ، ومعانيه الجديدة . فكلما خملت الفصحى ، او قلّ الاهتمام بها بث فيها روحا جديدة ، وولد وسائل وافرة لنهوضها . ونكن الحافظة لا تحتمله ولم يدوّن في حينه . وكلما زاد وتجدد اهمل سابقه القديم ، وحل محله الجديد ، ودام صفوه ومختاره . ومن المؤسف انه لم تراع في ظهوره العصور او لم تظهر مدونات فيه . وبالتعبير الأولى مختارات منه وتتوالى ليكتسب شكله الادبي ووضعه المقبول في التاريخ .

نشط عندنا مدة ، وبقي ملحوظا بعناية . لا سيما انه كان يتغنى به من جهة . ويرضي الفصحى في معانيه ، وهو قائم بذاته ، ومستقل بنفسه . وصفحته ادبية خالصة ، ومرغوب فيها . يعبّر شعور الامة ، واوضاعها في عامة احوالها البدوية ، والريفية ، ومتداول بين اهل القرى والمدن ايضا. والجميع محتاج اليه ، مضطر لمعرفته . فهو ادب لوحده ، وبحيا له . والاختلاط به والرغبة فيه مستديمة . ادبه جم ، ومعانيه فائقة . شاع في مختلف طبقات الشعب ، ويعين الاوضاع الاجتماعية باوضح ما فيها ، وباجلى مبانيها .

وهو قديم . وكانت اقدم تدويناته في العهد العباسي . وصل من ادبنا الجاهلي واستمر ، ولكن لم يكتب له التدوين وان استمراره دعا ان تكتب فيه مجاميع مختارة .

وفي عهد المغول كان مرعيا . واقترح الامير منوجهر على الصاحب بهاء الدين الاربلي ان يوضح صفحة منه . وشعَر هو بشيء من ذلك فحاول التدوين عنه تطمينا لرغبتهما (رغبة الامير ورغبته هو نفسه) ولقد ادرك المغزى الادبي للزجل ، واراد ان لا يكون كتابه غفلا منه ، او ناقصا عما فيه ، فوعد بأداء ما اقترح ، ولبى اجابة امره ، ولكنه لم يتيسر له ، ولم يتمكن ان يتصل باهل الزجل . وارباب ، فاضطر ان يعتذر ، ووعد انه اذا واتته الفرصة انجز ما وعد به لما ادرك من قيمته ، او علم من مكانته الادبية ، ولم يذمّه بل وعد ، وكرر وعده . الا ان الضرورة قهرته ، والاحوال حالت دون المساعدة فقصرته . والصحيح انه تعذّر عليه ان ينهج به نهجه في الادب الفصيح فخانته المادة ، فلم تتيسر له . وتعسر عليه الاتصال برجاله . ليكتب طبق ما اراد وكان يظن ان ذلك سهل

بمصر وطبع بمطبعة السعادة ص ١٣ و ١٤ نقلا من مخطوط البداية والنهاية ولم يوجد من هذا النص الا نتفة في النسخة المطبوعة ، وفي صيف سنة ١٩٦٦ ، راجعت اكثر خزائن استنبول فلم اجد فيها ما هو اكمل من النسخة المطبوعة والظاهر ان الامام السيوطي اعتمد نسخة مخطوطة اكمل من المطبوعة .

(١٤) هو القاضي الرئيس الشيخ شرف الدين ابو الحسن علي بن اسماعيل بن ابراهيم بن جبارة الكندي توفي بالقاهرة سنة ٦٢٢هـ ـ ١٢٢٥م وتفصيل ترجمته في تاريخ الادب العربي في العراق ج ١ ص ٢٤٩ .

(١٥) تاريخ العراق بين احتلالين ـ المجلد الاول ـ وفيه تفصيل .

ومتيسر دائما ، فلم يوفق اليه . ولعل مهمته في الديوان كانت تسهل له فعاقته عوائق من اهمها خروجه منه .

ومن المهم ان نعلم ان العلماء خافوا من التوغل في الزجل ، وان الحرص على البلاغة الادبية ومزاحمة الزجل لها حذر العلماء أن يؤدي الى الاخلال بالأدب الفصيح .

وكان يود المترجم أن ينهج في الزجل نهجه في كتابه في الفصيح ، وان يذكر ادب المعاصرين . واذا كان احتاج الى الاقتباس من القدماء فعل ، ولكن هذا محاط بسياج وان يكون ضيق مرغوبه في شرطه المقرر فلم يفلح ، وخذل لما اعوزه الاتصال بمن يقوم بالمهمة واننا لا يمنعنا التدوين ، وان لم نراع شروط الصاحب بهاء الدين بحذافيرها فلا يترك الميسور بالمعسور ، وما لا يدرك كله لا يهمل جله . وان ابن كثير اوضح ما وصل اليه الزجل، فكان مؤيدا من وجه ، وانه كان بكثرة فعزّ على مترجمنا ما اراد . ومطلبه عظيم لا يتيسر الا لمثله . وقد راينا الكثير مما دوّن ، ولكن ليس فيه ما يصلح بالوجه الذي بينه واختطه لنفسه . وهو الاديب الكامل .

الامير منوجهر :

هو الذي كتب له صاحب بهاء الدين هذا الكتاب ، وهو صاحب مشروع الزجل ، وكان كما نعته ابن الفوطي :

« فخر الدين ابو نصر منوجهر بن ابي الكرم ابن منوجهر الهمذاني الرئيس . نائب الصاحب (يريد عطا ملك الجويني) . كان من اعيان الصدور ، واستنابه الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني ببغداد ، ونواحي العراق ، واليه تنسب « التذكرة الفخرية » التي صنفها له شيخنا بهاء الدين علي بن عيسى المنشيء سنة ٦٧١هـ ـ ١٢٧٢م ، وهو كتاب حسن . يقول في ديباجته بعد ذكر الصاحبين شمس الدين وعلاء الدين عطا ملك الجوينيين : « عرفت في خدمتهما الملك المعظم الكبير فخر الدولة والدين ، مفخر الزمان منوجهر بن ابي الكرم الهمداني ، فجلوت بمعرفته صدا القلب ، واطلعته مني محل الاسودين ، وعقدت على محبته خنصري ، وافضيت اليه بمجرى وبجرى ، حسن الصمت ، حلو الحديث جامع بين الشرف القديم والمجد الحديث(١٦) » . اهـ .

كانت بحوث الصاحب بهاء الدين ادبية ، ومجالسه مهمة جدا ، وفيها مختار ما يحفظ من ادب جم . ولا شك انها مختلطة بأدب الزجل ، ولذا كان اقتراحه لما كان سمعه منه ، فاراد ان يمثله .

وفي التذكرة الفخرية بيان وافر .

وذكر ابن الفوطي اخاه الرئيس عماد الدين ابا المعاني محمد بن ابي الكرم في مادته من الكتاب(١٧) ، كما ان الكتاب المسمى بالحوادث الجامعة(١٨) بيّن ان الملك فخر الدين بن ملك همذان تولى الاعمال الواسطية سنة ٦٦١هـ ـ ١٢٦٢م ، واستصحب معه فخر الدين المظفر بن الطراح ، وجعله نائبا عنه ونعوته له من خير النعوت ، ومنها ما جاء على لسان الصاحب بهاء الدين علي بن عيسى الاربلي ، الا اننا هنا نشير الى اقتراحه على الصاحب البهاء في التدوين عن (الزجل والموشحات) وهذا الاقتراح يدل على سمو مكانة الامير فخر الدين في الأدب أو كما قلت مما كان يجالس به الصاحب بهاء الدين ، دلت على ذلك لزوم معاودة مختارات الصاحب الادبية . وان الصاحب البهاء لم يعتذر لحلولها في نظره محل القبول والقدرة على الاداء ، ثم اعتذر من جراء انه لم يتيسر له ما اراد ، وان كانت محفوظاته لا تفي بالمراد . وانه سيغتنم الفرصة لاداء واجب ما اقترح الامير . والغائب حجته معه . وكفاه تحفته الدرة اليتيمة ، والنادرة الفريدة ، اعني كتابه (التذكرة الفخرية) ، فجلا صفحة غامضة من تاريخ ادبنا . وسدّ ثغرة كبيرة الى ايامه ، لا سيما وان التدوينات شحت علينا بالبيان . فاذا كانت قد اعوزتنا المصادر ، فلا شك ان هذه التحفة التي عثرنا عليها ، ازالت غموضا كبيرا . ولم يكن العهد من عهود الظلام كما توهم المتوهمون. واعطتنا نهجا مهما في (ادب الزجل) في العراق .

ومهمتنا في هذه الحالة ان نجرى على الخطة . وقد جريت بموجبها في كتابي (تاريخ الادب العربي

---

(١٦) تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب لابن الفوطي القسم الثالث من المجلد الرابع ص ٤٢٠ .
(١٧) كذا . القسم الثاني ص ٨٤٤ .
(١٨) الحوادث الجامعة ص ٢٤٩ و ٤٨٥ .

في العراق) في مجلديه ، فجعلت الزجل من فصول الكتاب ، كما كتبت في (ادب البادية) ، وفي (اللهجات العربية)(١٩) واحوال البادية في كتابي (عشائر العراق) ، وهو اربعة مجلدات ، وفي مواطن اخرى تكلمت في مجلة الاقلام الغراء عن (الغناء في البوادي والارياف) ، ومقالات في صحيفة الدعوة الصادرة في الرياض في عامها الاول والثاني من عمرها المديد ، وكذا في شعر البدو وتاريخه .

عودة الى الصاحب بهاء الدين الاربلي :

قال فيه ابن ابي عذيبة في تاريخه ما نصه :

« ... المنشيء ، الكاتب البارع ، له شعر ، وترسل . وكان رئيسا . كتب لمتولي اربل ابن صلايا محمد : ثم خدم ببغداد في ديوان الانشاء ايام علاء الدين صاحب الديوان . ثم فتر سوقه . وكان صاحب تجمل وحشمة ومكارم اخلاق . وفيه تشيع . وكان ابوه واليا باربل . وقد افرد له العز الاربلي ترجمة في جزء كبير ، ولبهاء الدين مصنفات ادبية ... وخلف تركة عظيمة . منها الف الف درهم سلمها لابنه ابي الفتح ومحقها ومات صعلوكا باربل . »(٢٠) اهـ .

وجاء في كتاب فوات الوفيات ما نصه :

« الصاحب بهاء الدين المنشيء الكاتب البارع. له شعر ، وترسل ، وكان رئيسا . كتب لمتولي اربل ابن الصلايا ، ثم خدم ببغداد في ديوان الانشاء ايام علاء الدين صاحب الديوان . ثم انه فتر سوقه في ايام سعد الدولة ثم تراجع بعدهم وسلم ولم ينكب الى ان مات سنة ٦٩٢هـ (في هذا التاريخ نظر) . وكان صاحب تجمل وحشمة ، ومكارم اخلاق ، وفيه تشيع ، وكان ابوه واليا باربل . ولبهاء الدين مصنفات ادبية مثل المقامات الاربع ، ورسالة الطيف المشهورة وغير ذلك . وخلف لما مات تركة عظيمة نحو الفي الف درهم تسلمها ابنه ابو الفتح ومحقها ومات صعلوكا(٢١) ... » اهـ .

---

(١٩) بحثت في اللهجات واثرها وتاثيرها في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة الجزء العشرون ص ٦١ ـ ٩٧ .

(٢٠) تاريخ ابن ابي عذيبة المسمى (تاريخ دول الاعيان شرح قصيدة نظم الجمان في ذكر من سلف من اهل الزمان) للعلامة المؤرخ شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر المقدسي الشافعي الشهير بابن ابي عذيبة ج ٥ ص ٤٠٩ . وهو مخطوط في خزانتي .

(٢١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٣ و ٨٤ وذكر جملة وافرة من شعره .

كان كاتب الانشاء في اربل ، ثم في بغداد من سنة ٦٦٠هـ . وهذه كانت في الحقيقة دار تهذيب افادها ، واستفاد منها . واتصل بشخصيات عظيمة مثل علاء الدين عطا ملك الجويني ، وارضاه في مقدرته الادبية ؛ وفي حسن سلوكه ، واكتسب اصدقاء منهم فخر الدين منوجهر .

وله من المؤلفات :

١ ـ التذكرة الفخرية :

نسخة المؤلف كتبت في ١٤ رمضان سنة ٦٩٣هـ . اولها : « اما بعد حمد الله الذي احاط بكل الاشياء معرفة وعلما الخ » . وقد سبق ذكرها . واول بحوثها : « الشباب والخضاب والمشيب » . ومن بحوثها الوصف وكل ما فيها مفيد ، ومما استشهد به المؤلف قول المجد بن الظهير الاربلي :

هبّ نسيم السحر
وطاب نشر الزهر
وشاجرت امثالها
حمائم في الشجر
فكل غصن مزهر
من شدوها كالمزهر
وراق كل ناظر
حسن عيون الزهر
والروض من مبتسم الـ
ـثغر ومن مستعبر
والطل في اوراقه
كاللؤلؤ المنتشر
وفي الشقيق نكتة
تبدو لعين المبصر
كانها خال على
صفحة خدّ احمر
فبادر الفرصة من
قبل نفاد العمر
وباكر الشرب على
وجه الربيع المسفر
من بنت كرم زوّجت
بابن الغمام المطر
تقطعها مزاجها
إذ [حلّيت] بالجوهر

من كف معشوق الدلا
ل ذي رضاب مسكر
يصون زهر الحسن أن
يجنى بغير النظر

وهذه من رقيق الشعر .

٢ ـ المقامات الاربع :

٣ ـ رسالة الطيف ، او طيف الخيال :

توجد منه نسخة في خزانة ايا صوفيا باستنبول برقم ٤١٣٧ وسماها (طيف الانشاء) وفي خزانة السلطان احمد الثالث نسخة بخط الخطاط الشهير ياقوت المستعصمي ، كتبت سنة ٦٧٤هـ ببغداد . ومنه نسخة في مكتبة الاوقاف العامة ببغداد . وطبع طيف الخيال في بغداد مشحونا بالاغلاط .

٤ ـ كشف الغمة لمعرفة الائمة :

وهو في مناقب الائمة ، فرغ من تاليفه في ٢١ شهر رمضان سنة ٦٨٧هـ . وفي خزانتي توجد مخطوطة منه قديمة وصحيحة ، متقنة . وطبع على الحجر سنة ١٢٩٤هـ وطبع ثانية في النجف سنة ١٣٨٤هـ . وهو طافح بالادب العربي ، وصادر من اديب كامل .

٥ ـ حياة الامامين زين العابدين ومحمد الباقر :

واظنها مستلة من كشف الغمة .

٦ ـ حدائق البيان في شرح التبيان في المعاني والبيان :

هذا الكتاب شرح به كتاب استاذه الامام شرف الدين الحسين (الحسن) بن محمد بن عبدالله الطيبي(٢٢) الدمشقي المتوفى ١٣ شعبان سنة ٧٤٣هـ ـ ١٣٤٣م بدمشق والاصل (التبيان في المعاني والبيان) توجد نسخة منه في دار الكتب المصرية كتبت سنة ٩٣١هـ ، ونسخة اخرى في خزانة ولي الدين جار الله ، ونسخة ايضا في خزانة نور عثمانية برقم ٤٣٧٨ وفي خزانة الفاتح نسختان منه برقم ٤٥٣٥ و ٤٥٣٦ ، كما توجد نسخة في خزانة ولي الدين جار الله كتبت سنة ٧٤٣هـ . وهذه الخزائن في استنبول وان معهد المخطوطات العربية حصل على مصور الكتابين المتن والشرح المذكورين .

ولا شك ان هذا الكتاب يعيّن اشتغال المترجم في علم البلاغة . ومنه تعرف درجة ثقافته فيها .

حياته في الشعر :

هذا ، وان تدقيق نواح عديدة من حياة المؤلف لازمة . ويهمني ان اذكر بعض النماذج من شعره ، وهي تعيّن مكانة الرجل الادبية :

غزال النقا لولا ثناياك واللمى
لما بتّ صبا مستهاما متيما
ولولا معانٍ فيك او جبن صبوتي
لما كنت من بعد الثمانين مفرما(٢٣)

وشعره هذا ورد في (التذكرة الفخرية) وفيها جملة وافية ، تدل على مكانته من الادب العربي .

نثره :

وهذا يكفي فيه النظر الى ما كان قد تحراه في ادبه المنثور من شروط كما هو الشان في شعره وهو الاديب الكامل ، ولا اعتقد ان الاحصاء في المنثور والمنظوم يأتيان باكثر مما بيّن من اوصاف الادب ، او ما يستخلص منه في الاسلوب العربي .

وحياته كلها ادبية ، وبرع فيها في النثر ، كما فاق في النظم ، واتقن امرهما . وهكذا في تاريخ الادب العربي من جهة ، وفي تاريخ الادب الشعبي للرجل وما ماثله . فهو المجلّى فيها ، والاديب الكامل .

ان المختارات الادبية هي الادب ، وما لم يكن مختارا فلا يلتفت اليه ، ولا يبالى به ، فالمختار المصطفى المنتقى هو الغاية من الادب . وكنت كتبت في العناية في الادب العربي في مجموعات فانها تغني عن دواوين ، ويكتفى بها عن اسفار كبيرة . وبعضها حوى اسفارا مثل الاغاني ، والبيان والتبيين ، وعقد الجمان في شعراء الزمان ، وتلخيص معجم الالقاب . وغيرها .

وقد قيل قديما « وكفى من القلادة ما أحاط

---

(٢٢) الطيب نهر وبلدة في لواء العمارة (محافظة ميسان) ، كما في آثار باقية باللغة التركية للاستاذ صالح زكي ج ٢ ص ٢٧٩ ويسمى اليوم نهر (الطيب) كذلك .

(٢٣) وتكملة البيتين في فوات الوفيات وفيها ابيات اخرى .

بالمنق » . وهذه الامثلة تشير الى ما وراءها من شعره . فهو كامل في فنون الادب . ومنه الشعر. واذا لم يكن مكثرا فيه فلا شك ان عيونه المنقولة تعيّن مكانته في شعره .

وعلمنا من شيوخه في البلاغة : (الامام شرف الدين الحسين « الحسن » بن محمد الطيبي الدمشقي) .

ومن اخذ عنه : (عبدالرزاق المعروف بابن الغوطي) .

ومن آثاره الادبية يفهم انه تعهد نفسه في بحوثه الادبية ، وقد فاق في مطالبها ، فصار من اعلام الادب العربي . وهذا الفاضل الكامل في عهد يعد من عهود الخمول ، وهبوط المعرفة . وكان من ادباء الدولة العباسية وادرك عهد المغول ، فهو من مخضرمي الدولتين .

والملحوظ ان عيون الادب العربي في نظمه ونثره كثيرة جدا . ونحتاج في تاريخنا الادبي الى تنظيمها ، وان ترتب على العهود التاريخية ، تطمينا لرغبة الراغب ، وهذا لا يتيسر الا لاديب استكمل المدة ، وتسلط على الموضوع ، وعلم نواحي الرغبات المختلفة ، فقدّم مجاميع فيها مختارات نافعة . وان اديبنا قدم ما قدم ، فخدم خدمة ادبية لا تقدر وعرض تحفة ممتازة لا ينكر امرها ، ولا يستعاض عنها .

والحق ان الحياة الادبية قوامها مثل هذه والا تعب المرء في النحري عن عيون الشعر ، وعن جواهر النثر ، فجاء ادب هذه المجموعة مختصرا واننا بهذه لا نبخس المجاميع الاخرى فقد بلغت غاية ، وسدّت حاجة ادبية لا تقدر . ولكل فضله ، ومكانه من الادب . حفظوا لنا خيار ما وصل اليهم . ولا شك ان هذا انتبه اليه كثيرون . ولذا قالوا في وصف العيون :

عيون عن السحر المبين تبين .

وفي مطلب آخر :

ودعجاء المحاجر من مَعَدّ
كأن حديثها تمر الجنان
اذا قامت لحاجتها تثنت
كأن عظامها من خيزران

وآخر يصف جماعة بالخطابة من العرب :

يرمون بالخطب الطوال وتارة
وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وآخر من هذا النوع :

عليم بابدال الحروف وقامع
لكل خطيب يثلب الحق باطله

ومن النثر ما جاء به الكتاب الكريم :

وهو في الخطاب غير مبين
وان يقولوا تسمع لقولهم
ومنهم من يعجبك قوله في الحياة الدنيا

وفي الحديث الشريف :

ان من البيان لسحرا

الاسلوب :

ومن اوصاف الاسلوب ان يكون مسجعا او مرسلا . وايهما اولى بالاخذ . ان المترجم بالنظر لما ذكر من الاوصاف رجح ان يكون مرسلا. ومن ارقى اساليبه ان يكون سهلا ممتنعا . او على رسله في اطواره ، فكان مطلوب المقترح عليه ليوافق رغبته ، فامتثل امره ، فجاء آية في البيان ، فلم يكن في الخطاب ، ولا ما ينوب عنه غير مبين بل يؤدي الغرض كما ينبغي .

وان الاتجاهات في الاثنين لم يخل الخطاب او الكتاب منهما ، فكان لترجيحه في الامتثال مجاراة واتباعا لمخاطبه . وقد سبق ان بينت الاساليب ومكانتها في كتاب فيلسوف العرب الكندي(٢٤) عند الكلام على اسلوبه . وكذا في (ذكرى ابي الثناء الالوسي) في مدحه السجع ، وفي ذمّه ، وان الترسل اولى فلا يتعب الفكر . ولا يضطر الى التصنع وما ماثل ذلك . وكذلك تكلمت في التاريخ الادبي في العراق عند البحث في النثر والاساليب فيه ، وعلاقته بالبلاغة ، وانه تابع للرغبة ، وقد مشى المؤرخون على مراعاة احدهما تارة ، والآخر اخرى .

ان العرب قالوا : « الالفاظ قوالب المعاني »، فلا تخرج عن المعنى بل تؤدي المعنى بتمامه . وجاء الوصف ، وما قاموا به من معاني كانت هي المطلوبة ، فلا يتجاوزونها . فاذا قالوا الشباب قابلوه بالمشيب لتظهر مزاياه ، ونعتوه بما يخصه، واذا صاروا الى المشيب ذمّوه ، وتألموا منه ،

---

(٢٤) طبع في مطبعة اسعد ببغداد سنة ١٩٦٣م . وصدرته بمقدمة في ونقلته عن التركية الى العربية والحقت به مبحثا في (اثر مؤلفات الكندي في الاوساط العلمية) .

وحزنوا عليه . وهذه المقابلات لاظهار المزايا ، وبيان ما في كل منها . ونقلوا ما قيل مما يدل على ثروة ادبية لا حدود لها . وعينوا النفسيات في اطوارها وحالاتها معها . ولم نجد انفكاكا من الصلات بينهما .

ومن ثم تتكون تلك الثروة العظيمة سواء في ذمّ الشباب أو مدحه . وذمّ المشيب وما يعرض من فوات نعيم ، او ان يثوبوا الى الرشد ؛ والاتصال بالعقل ، والنادم من نزق الشباب ، وشذوذ الفكرة ، فقالوا :

ان الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء اي مفسدة

وهكذا ضروب التفنن في المعاني . وقلت المماثلة او المقاربة . فكل اديب ما لم ينهج غيره من معان جديدة ، تكاثرت المعاني وصارت ثروة عظيمة .

ومن هنا يظهر التحول في الأسلوب ، وموافقة المعاني تبعا لها . ولكل وجهة ليست في الأخرى . ومنهم من مدح الشورى ، ويرى الاتفاق على ذلك . وآخر يذمها بانها ضياع للنفسية وابطال لفعالية العقل فيرى غيره قوته في الفكر ، ويسلم بانه دونه . ويقول ما استشرت أحدا الا رايته فوق تفكيري ، ورايت انني دونه . وهكذا .

ولا يهمنا الموضوع ، وانما بحثنا يتعلق بالأسلوب . وقد راى المترجم له ان الاسلوب يجب ان يتصف بمزايا عددها في كتابه « التذكرة الفخرية » . والتزمها ، وجعلها مما يتطلبها العقل السليم وصاحبه مثل الفخر الذي اقترح أن يكتب في الموضوع . وان يراعي ما ذكر من الأوصاف .

WWW.ATTAWEEL.COM